الفصل الحادي عشر

خاتمة
تعريفات جديدة

تقصَّى هذا الكتاب القضايا المتعلقة بالإجابة عن سؤاله: ما الإبادة الجماعية؟ وشدَّدتُ في البداية أنه لا يوجد جواب صحيح واحد. الإبادة الجماعية فئة وضعها الباحثون -المحامون والسياسيون والمعلِّقون والناشطون- حول الظواهر التاريخية الاجتماعية، وللإجابة عن السؤال نحتاج إلى أن ننتج أكثر المفاهيم العامة ترابطًا، ما سيساعدنا على فهم المعنى من عرض الأحداث والأفكار التي تشكل حقل الدراسة هذا.

بدأ الكتاب حيث بدأت الإبادة الجماعية، مع مفهوم رفائيل لِمكن بذاته، وقد رأيت جزءًا من مهمته لاستعادة عناصر الإبادة الجماعية التي كانت ضائعة في الاتفاقية، وحتى فيما بعد في مناظرات أكاديمية لاحقة، فقدَّم الكتاب إطارًا حديثًا يجري بثبات إلى ما يلي نقطة بداية لِمكن، بمحاولته دمج بعض أفضل الأفكار لباحثين لاحقين، ويبدو من الملائم أن نختتم هذه المناقشة بتقديم بعض التعاريف الملخصة التي يستطيع القرّاء لاحقًا مقارنتها مع تلك التي مرَّت عليهم في الجزء الأول من الكتاب (انظر المربع 11.1).

obeikan.com

النقطة الوحيدة التي أبتعد فيها عن التعريفات السابقة كلها هي أنني أعرِّف الإبادة الجماعية بمعنى مزدوج، فالإبادة الجماعية نوع من النزاع الاجتماعي غير المتكافئ بين مجموعتين من الفاعلين، التي يتم تحديدها بصورة رئيسة من خلال نوع العمل المنفذ من جانب الطرف صاحب النفوذ الأقوى، ولهذا السبب نحتاج إلى تعريف ذي جانبين يحدد الإبادة الجماعية بوصفها نزاعًا، وعملًا يتسم بطابع الإبادة الجماعية؛ بكونه نوع العمل الذي يثير ذاك النزاع. أضع الإبادة الجماعية بوصفها نزاعًا أولًا؛ لأنها الإطار الأكبر الذي لا يتضمن الإبادة الجماعية كعملٍ وحسب، بل مقاومة الإبادة الجماعية من جانب المستهدفين والعمل من جانب أطراف ثالثة.

الإطار 11.1 تعريفات جديدة

الإبادة الجماعية Genocide

أحد أشكال النزاع أو الحرب الاجتماعيّة العنيفة بين منظمات قوات مسلحة تهدف لتدمير المجموعات المدنية الاجتماعية، والمجموعات تلك، وفاعلون آخرون يقاومون هذا التدمير.

عمل إبادي Genocidal action

عمل تقوم به منظمات القوات المسلحة بمعاملة المجموعات المدنية الاجتماعية على أنها العدو، وتهدف لتدمير قوتها الاجتماعية الحقيقية أو المفترضة، من خلال وسائل القتل والعنف والإكراه ضد الأفراد الذين يعدونهم أفرادًا من المجموعات.

إبادة جماعية Genocide

سلسلة أحداث على نطاق واسع، تتضمن عددًا هائلًا من الضحايا.

obeikan.com

عنف إبادي جماعي Genocidal violence

نـزاع محـدود أو متمركـز بخصوص الإبادة الجماعيـة، على نطاق ضيـق جدًّا، أو بعدد ضئيل جدًّا من الضحايا كي يُعدَّ إبادةً جماعيةً.

ملاحظات: يكمن الفرق بين الإبادة الجماعية و عنف الإبادة الجماعية في مسـألة الظروف التصويرية والتحليلية المواتية؛ ولذلك لا يمكن منحها مؤشراتٍ عدديةً دقيقةً، تعني كلمة الضحايا، القتلى إثر جميع أنواع العنف والقسر، وليس الوفيات ببساطة.

الشـيء الجديـد الآخر هـو أنَّني أميز الإبـادة الجماعية بوضـوح على أنها من أصناف النزاع والبطش المختلفة عن الإبـادات الجماعية كأحداث، وأقدم تعريفـات للإبادة الجماعية وعنف الإبادة الجماعية كطرق تشـير إلى مقاييس مختلفة من النزاع المتعلق بالإبادة الجماعية.

تتضمن هذه التعريفات عشر تقدمات مهمة:

أولًا: الاعتـراف بعـدم تكافـؤ القـوى الأساسـية بيـن العوامـل المسـلحة الجماعيـة، والفئـات الاجتماعيـة المدنية، غيـر أنَّ هـذه التعريفات ترفض أن تعامـل عـدم المسـاواة هـذا ككل، وبهذا فهـي غير قادرة علـى معالجتهـا، إنهـا تعـرف الإبـادة الجماعيـة بطريقة تميـز فيها إمكانـات المجموعـات المسـتهدفة للمقاومـة والقـوة المضـادة، ومـن خـلال الإشـارة إلـى فاعليـن آخريـن توضـح هـذه التعريفـات أن الإبـادة الجماعيـة تتضمـن أطرافًـا ثالثـة بصـورة نموذجيـة، وأن معلوماتهـا تهمنـا، هـذا انفصـال جـذري مـع الأفـكار ذات الجانب الواحد.

ثانيًا: انتقد الفكرة القائلة أنَّ الإبادة الجماعية استثنائية خارج النطاق العادي للظواهر الاجتماعية، وأرجع نحو عدٍّ كيف أنها مرتبطة بظواهر اعتيادية أكثر للنزاع الاجتماعي والحرب، التعريف الرئيس حديث من حيث تحديد أن الإبادة الجماعية بوصفها نزاعًا منظمًا وعنيفًا، تشكِّل الحرب (بالرغم أنَّ لِمكن تنبَّأ بجدلي ضمنيًّا) حتى الإبادة الجماعية في وقت السلم تعدُّ شكلًا من أشكال الحرب ضد الفئات الاجتماعية، يطرح لنا هذا التحديد سؤالًا ثانويًّا تجريبيًّا، ألا وهو ما إذا كانت الإبادة الجماعية تحل في سياق حرب تقليدية أكثر عمومية أم لا. رأيي أن الإبادة الجماعية بصورة نموذجية ظاهرة هجينة، تُدمج مع حروب أخرى، لكنني لم أبنِ هذا القول في التعريف؛ لأن هذه الصلات في بعض الحالات تكون غائبةً أو واهنةً.

ثالثًا: يقوم تعريفي بإعادة هدف لِمكن الأصلي في إقامة مفهوم فئوي شامل يغطي مختلف الأفعال العنيفة والقسرية المتعددة المرتكبة بحق المجموعات، ورغم أنني أعرِّف العمل المتسم بطابع الإبادة الجماعية من خلال هدف تدمير مجموعة ما، يبقى هذا التعريف مختلفًا عن معظم التعريفات التي طُرحت، لا يُعَرَّف العمل المتسم بطابع الإبادة الجماعية على أنه أنواع معينة من الأعمال وحسب، (كما يفترض أولئك الذين يصبون تركيزهم على القتل)، بل بوصفه صنفًا عامًّا من العمل الاجتماعي المتسم بمجموعة من الأهداف الاجتماعية المدمرة مع وسائل عنيفة وقسرية، وهذا النوع من العمل مرتبط بالصنف الخاص للنزاع الاجتماعي العنيف الذي

يتـمّ وضعه بهذه الطريقة، يهـدف التعريف إلى إعادة مفهوم الإبادة الجماعيـة كفئـة عامة، قادرة على أن تخدم مفهـوم إطار عمل لفهم العنف المستهدف ضد التجمعات السكانية المدنية، ويعارض تعريفي الاقتراحات بمضاعفة المفاهيم في هذا المجال، واستعمال مفاهيم أخرى كهياكل عمل.

رابعًا: مـن خلال تعيين مراكز مرتكبي الجريمـة على أنَّهم منظمات قوى مسـلحة، أقترح الجمع بين مسـاعي القوى العامة (ليسـت سياسية وحسـب) والقوات المسـلحة المنظمة القادرة على إحداث العنف، يميـز هـذا الاتحـاد الـدول والأحـزاب والقـوات المسـلحة وأشـباه الـدول والحـركات المسـلحة، والتجمعات المسـتوطنة والشـيوعية وغيرها التي تقوم بارتكاب الإبادة الجماعية، لكن منظمات القوى المسـلحة لا تحتاج إلى أن تكون مؤسسات رسمية قائمة، في إحدى نهايـات الطيف تكـون مرتجلةً نسـبيًّا كما في حالـة منظمي برامج و«أعمـال الشـغب العرقيـة المميتة»[1]، وعلاوةً علـى ذلك عن طريق وصـف مراكـز مرتكبي الجرائـم بصفتهـا منظمـات، لا أقصد أن أقترح أنها تعتمد حصريًّا على الأسـلحة والمسلحين لتنفيذ الإبادة الجماعيـة، فهـي تقوم أيضًـا بتعبئة الأفـراد غير المسـلحين، لكن قدرتهـا على بذل القوة المسـلحة هـي المفتاح لقدرتهـا على إكراه التجمعات السكانية وترهيبها.

خامسًا: إن المسـتهدفين بالإبادة الجماعية هي المجموعات الاجتماعية المدنيـة، وسـمتهم المحـددة العامـة ليسـت نطاقًا من السـمات

الاجتماعية (العِرْق أو الطبقة أو القومية أو الإثنية أو الدين أو السياسة أو جنس الأفراد) إنما هي طابعها غير المسلح، ورغم أن طابع المدنية للمجموعات المستهدفة كان واضحًا في عمل لِمكن، ومضمرًا في مناظرة الإبادة الجماعية، لكنها المرة الأولى التي يتم التركيز عليه بوصفه عنصرًا للتعريف، وتعزز هذه الصياغة الإجماع المؤخر على أن الفئات الاجتماعية كلها المهددة بالتدمير يجب أن ينظر إليها ضمن نطاق الإبادة الجماعية، وتطرح سؤال ما إذا كانت المجموعات التي تتم مهاجمتها تعد مجموعات واعية لذاتها، إضافة إلى تحديدها على أنها مجموعات من جانب مرتكبي الجريمة.

سادسًا: توظف هذه التعريفات بصورة متعمدة صيغة الجمع لمنظمة القوات المسلحة و الفئات الاجتماعية، ولا تفترض تفرُّد مراكز الجناة أو المجموعات المستهدفة، يقود هذا الافتراض للفكرة المصطنعة التي تأخذ في الحسبان الحملات ذات طابع الإبادة الجماعية المتزامنة والمترابطة من قبل المعتدين ذاتهم كسلسلة من إبادات جماعية مختلفة، ويميز التعريف أن حدث الإبادة الجماعية قد يكون له معتدون و/أو أهداف متعددون.

سابعًا: لا يتم تقليص هدف تدمير الفئات الاجتماعية إلى قتل أفرادها، بل يُفهم على أنه تدمير لقوى المجموعات بكل من المعنى الاقتصادي والسياسي والثقافي، يشار إلى قتل الأفراد وإيذائهم وتجريدهم من ملكياتهم وترهيبهم على أنها مجرد وسائل

متنوعة، وليست المغزى، لتدمير المجموعة من وجهة نظر مرتكبي الإبادة الجماعية، ويطرح هذا التعريف سؤالًا وهو ما إذا كانت قوة المجموعة التي ستدمر حقيقية أم وهمية، وبمعنى آخر ما إذا كانت أفكار المعتدين عن قوة الأهداف الاجتماعية تتوافق مع قوتهم وقوة مراقبيهم، بما أن طبيعة العملية بصورةٍ أساسيةٍ هي ذاتها، بغض النظر عن جواب هذا السؤال، من الواضح أن تعريفات المعتدين تهمنا، لكن بما أن الإبادة الجماعية ليست عملية من طرف واحد، فكذلك يهمنا تعريف الضحايا والآخرين، وبهذا المعنى يكون هذا تعريفًا شاملًا.

ثامنًا: تؤكد التعريفات أن الأفراد الذين ترتكب ضدهم أعمال الإبادة الجماعية هم الذين تنظر إليهم منظمات القوات المسلحة بوصفهم أعضاء للمجموعات المستهدفة، ويميز هذا أن أولئك الذين تتم مهاجمتهم قد ينظرون إلى أنفسهم كأعضاء من مجموعة معينة، أو قد لا يفعلون ذلك. وهكذا، فإن التعريف يغطي إمكانات التعريفات الإيديولوجية الوهمية كلها التي تنسب إلى الناس عضويات لمجموعات هم أنفسهم لا يدركونها، وأعمالًا اعتباطية في أثناء الإبادة الجماعية تسبب إيذاء الناس الذين لا يتوافقون مع هذه التمثيلات الإيديولوجية.

تاسعًا: تحدد التعريفات أن الشرط المسبق لتدمير المجموعات هو أن يتم تحديدها على أنها العدو، وتشير أساسًا إلى المعنى العسكري لكلمة العدو، ويتم فهم التدمير على أنه عنيف أصلًا،

obeikan.com

لكـن يتـم تمييزه علـى أنه يشـمل نطاقًا من شـكليات القـوة، ويتم تلخيصه بالقتل والعنف والإكراه، ضد الأفراد، ويشير ترتيب هذه المصطلحـات إلـى وجـود تمثيـل تدريجـي للعنف، لكـن إدراجهم المتسـاوي يتـرك لنـا -كسـؤال تجريبـي- اتحاداتهـم المعينة في حالات خاصة.

عاشرًا: يميـز التعريفـان الأولان الأساسـيان الإبـادة الجماعية من خلال طابع العمل والنزاع اللذين تشتمل عليهما، بدلًا من نتيجة معينة، ومع ذلك فإن التعريفين الثالث والرابع يسلمان بأن حلقات سلسلة الإبـادة الجماعيـة تكون عامةً مميزةً بمقياسـها، الـذي يكون فيه لعـدد الضحايـا (المهجـرون والمغتصبـون، إلـخ، بالإضافـة إلى القتلـى) دلالات مهمـة؛ لذا أعـرِّف الإبادات الجماعيـة على أنها سلسـلات ذات مقاييـس طويلـة، وأرقـام كبيـرة مـن الضحايـا، ومـن الناحيـة الأخـرى أقدِّم فكرة العنف المتسـم بطابـع الإبادة الجماعيـة كمصطلحٍ لأصف الحلقات الأكثر تحديدًا، ترتكز هذه الفكرة على فكرة كوبر عن مذبحة الإبادة الجماعية، لكنها تتميز أنها ليست مجرد قتل جماعي بإمكانه أن يحدث بأشكال محدودة، ثمـة أيضًـا اغتصابات جماعية محلية، وعمليـات تهجير جماعية وغيرها، ويعدُّ العنف المتسـم بطابع الإبادة الجماعية مصطلحًا عامًّا يشـمل هـذه الظواهر كلها، وقد يكون بصـورة خاصة مفيدًا مـن أجل تحليل الأنماط التي غالبًا ما تكون فوضوية لعمل الإبادة الجماعية ونزاعها في القرن الواحد والعشرين[2].

بينما ترتكز هذه التعريفات على أفكار لِمكن، وتشتق عوامل للفهم من الاتفاقية، ولاحقًا من السلطات، فإنها تضع الإبادة الجماعية ضمن إطارٍ اجتماعي لفهم العمل والنزاع، ويتم تقديمها هنا لا بمعنى وضع القانون، بل بوضع نموذج أو نوع مثالي يكون مفيدًا في الفهم، ويصوغ توماس بيرجر في بحثه في المنهجية الاجتماعية «تكون مفسرةً بصورة ملائمة وما يبدو على أنه تعريف في الحقيقة هو وصف للنموذج»[3]، والهدف النظري الأكثر عمومًا لهذه النماذج هو «أن يخدم بوصفه بديلًا لقطاع ما من الواقع التجريبي...، وأن يكون مستخدمًا للتجارب الوهمية...، أو للنقاط الثابتة للمراجع في الدراسات المقارنة»[4]، آمل أن الإطار الذي وضعته في هذا الكتاب سيساعد تلاميذ الإبادة الجماعية على تنفيذ التحقيقات التجريبية لقضايا خاصة، ودراسات تاريخية دولية، ومقارنة عالمية، وكلاهما ضروري إذا أردنا أن يستمر فهمنا للإبادة الجماعية بالتقدم.

openkan.com